

## الفصل الثالث

### مقاومة الموالي في عصر صدر الإسلام

#### اشتباه الخلفاء

وصل إلى المدينة عدد كبير من الأسرى ، وكان من بينهم الهرمزان . وهو قائد سياسي عنك ، سجن به من المدينة بلباسه وتاجه المسكل بالياقوت ، ومثل بين يدي عمر ، فأسلم وجعل له عمر مرتباً قدره ألفاً درهم (١) . وبقي رئيساً للموالي يستشيرونه ويجمعون إليه إذا حزنهم الأمر (٢) .

وكان أبو لؤلؤة من أشد هؤلاء الموالي تعصباً لقومه ، وكلما مر به صبي من السبي مسح رأسه بيده وقال : أكل كبدي عمر (٣) . كبر على هؤلاء الموالي أن يروا مقروض دولة الأكاسرة ينعم بهذه القوة والجاه العريض والسلطان الواسع ، فإذا أرادوا أن ينقسموا من العرب فإن شخصية عمر هي الشخصية المكافئة للشار منها ، وهكذا أجمعوا أمرهم ووكلوا به أبا لؤلؤة ، فطعن عمر بخنجر ذي رأسين طعنات توفى على أثرها .

وقد روى أن عمر قال حين طعن ، من أصابني ؟ قالوا : أبو لؤلؤة . فقال : « قد نهيتكم أن تجلبوا علينا من علوجهم أحدا فعصيتموني (٤) » . وقد اختلفت آراء المؤرخين في أسباب اغتياله ، فمنهم من قال إنه مجرد

(٢) ط ج ٥ ص ٢٦٣٢

(٤) طبقات ج ٣ ص ٢٥٤

(١) ط ج ٥ ص ٢٥٥٢

(٣) ط ج ٥ ص ٢٦٣٢

عداء شخصي بين عمر وبين أبي لؤلؤة ( انظر في دائرة المعارف الإسلامية الجزء الثالث ص ١٠٦٣ تحت مادة عمر ) .

ويرى وهوزن أن اغتيال الخليفة ثار للفرس من العرب في شخصية عمر . وهو رأى أميل إليه ويقرب من الحقيقة وتأييده الرواية الآتية : قال عبد الرحمن بن أبي بكر غداة طعن عمر ، « مررت على أبي لؤلؤة عشى أمس ومعه جفينة والهرمزان وهم نجى ، فلما رهقهم ، ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان ، نصابه في وسطه ، فانظروا بأى شيء قتل ، فلما جرى بالخنجر وجد كما وصفه عبد الرحمن . ولما سمع بذلك عبيد الله ابن عمر أمسك حتى توفي أبوه فاشتعل على سيفه وأتى الهرمزان فقتله (١) وقد أقنع رأى العلم بأن الأمر مدبر ، ذلك أنه لما أراد عثمان قصاص عبيد الله هاج عليه الناس ولم يروا حقاً في ذلك ، فوجد عثمان نفسه أمام مشكلة دعمته أن يقوم خطيباً فيهم ويقول : ألا إني ولي دم الهرمزان وقد وهبته لله ولعمر وتركتهم لدم عمر (٢) . وإن أعرض لذكر حديث كعب الأحبار وتنبيهه بمقتل عمر لأنى أراه من قبيل الأحاديث التي تصاغ حول الحوادث الجسام ، على أنى لا أبرىء هذا الرجل من المؤامرة .

كان اغتيال عمر بده سلسلة لاغتيالات مقبلة ، فإن اغتيال عثمان لن تبرأ منه يد الموالى ، وهو حادث جليل اكتنفه الغموض وأحاطت به الأحاديث المتضاربة ، فإن جموع المتذمرين أقبلت من أرجاء المملكة مساقها الدعايات والأراجيف والدسائس ووضع الأخبار والأحاديث حتى تجمعت في عاصمة الخلافة فرق كثيرة من هذه الجموع لا تدري لماذا جاءت وما الذى دفعها إلى ذلك ، وحدث من جراء تجمعها إرباك

(١) ط ٥ - ٢٧٩٧ ، يعقوبى ج ٢ ص ١٨٨ ، طبقات ج ٣ ص ٢٥٨

(٢) يعقوبى ج ٢ ص ١٨٨

نشر الفوضى حتى لم يعد للأمر ناظم يضبطه ، هنا أصاب المرجفون غنلة فدخلوا على حين غرة كما يقول صاحب الانتصار<sup>(١)</sup> على عثمان فقتلوه عن غير علم للمسلمين يدلنا على ذلك قول علي بن أبي طالب حين بلغه ذلك : تبا لكم آخر الدهر ، وقوله للحسن ، يقتل أمير المؤمنين وأنت حاضر ، فأخبره أنه لم يعلم بذلك ، وأخذ المرجفون يذيعون الأخبار ويلفقون التهم ، لتغفوا آثار الجريمة . ولتأصق بأكبر عدد ممكن من الأبرياء وغيرهم كي يسهل إيقاظ الفتن كما يحدث في مثل هذه الحوادث . ومهما يكن فإن هذه الفتنة العمياء التي ذهب في غمرتها خليفة تقي عادل ملأت الأموال في أيامه خزائن الدولة وبسط العدل وواقه وأترعت بيوتات قریش بالغنائم وضربت جنوده في الأرض تفتح وتفرض نفوذه على العالم حتى ركزت راياتها على حدود الصين وأبواب الغرب — فتنة دبرتها يد السبئية ( أتباع عبد الله بن سبأ ) ويد الموالي الناقمين المتربصين وعقدوها نية تقلب الدولة وتخضع استقرار الأمة . فهي ثورة فيها نقمة اليهود لخير وثار الموالي للقادية والمدائن وجالوا . وهي حلقة مفرغة بدأت بعمر بن الخطاب وأخذت تلتقط كبار رجال الدعوة لتضعف شوكة الأمة وينفسح لها الطريق لتسلكه إلى هدفها وهو استئصال الحكم العربي من الوجود .

وقد بقي اغتيال علي بن أبي طالب غامضا والتهمة فيه مقصورة على الخوارج حتى عثرنا على نص<sup>(٢)</sup> مبين قلب صفحة التاريخ الأولى إلى الثانية وربط هذه الحوادث بعضها ببعض ، ووجد بين مراميها ومقاصدها . فقد دل هذا النص أن هذه المؤامرة التي ذهب ضحيتها الخليفة الرابع لا تختلف عن المؤامرة التي ذهب ضحيتها الخليفة الثاني فقد

(١) كتاب الانتصار لابن الحياط ص ٦١

(٢) الكامل للمبرد ص ٥٤٩ — ٥٥٣

رأس تلك الهرمزان ودبر هذه زاذويه فلم تكن إذن مجرد نقمة من الخوارج بل كانت مؤامرة مدبرة مقصودة من مرامها القضاء على ثلاث شخصيات من عظماء العرب هم علي ومعاوية وعمرو بن العاص ، ولو تمت بكاملها ما نجا معاوية ولا عمرو .

## مقاومة الموالى فى أيام بنى أمية

قلنا إن دولة بنى أمية كانت تستظهر فى حروبها وولاية أعمالها برجال العرب ، فاحفظ هذا الاستظهار قلوب الموالى . وتبين لهم أنهم لم يقتعدوا مكانا ظاهراً إلا إذا ثقفوا لغة الفاتح وتأدبوا بأدبه وفقهوا شريعته ، فاندفعوا إلى دراسة الأدب واللغة والقرآن والحديث ودراسة الأنساب خاصة ليضعوا على العرب من المثالب ما يريدون<sup>(١)</sup> . واتخذوا من مبادئ الدين وسيلة تحلهم المحل الأرفع ، فقد أقر القرآن : أن المؤمنون إخوة « إنما المؤمنون إخوة » وأثبت النبي صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع أن الله أذهب عن الناس نخوة الجاهلية ونفرها بالآباء ، وأنهم كلهم لآدم وآدم من تراب<sup>(٢)</sup> ولم يكفهم هذا فقد بدءوا ينشرون ماثر آبائهم ويقاخرون العرب ويكاثرونهم ويظهرون فضل العجم على العرب<sup>(٣)</sup> ، ونظموا حركة قوية يكمن فيها خطر جسيم .

يقول ولطوزن . لقد كان للدولة الأموية شغل شاغل فى مقاومة المعارضة التى يقوم بها الموالى باسم الله وباسم الدين ضدهم ، وكان هذا الخطر الذى يظهر بين حين وآخر ضد الحكم الأموى آتياً من ناحية

(١) راجع الأعاني فى ترجمة على بن الجهم ج ٩ ص ١٠٤ ، المسعودى ج ٦ ص ١٧٣

١٥٥ ، أغاني ج ٢٠ ص ٧٨ ، ج ١٢ ص ١٥٦

(٢) العقد ج ٢ ص ٨٦ — ٨٧

(٣) عقد ج ٢ ص ٧٠ — ٧٧

العراق والخطر الأكبر في ذلك حركة اجتماعية لم تكن موجهة ضد الأمويين فحسب بل ضد العرب عامة (١).

وعما ساعدتهم على حركتهم أن الشريعة الإسلامية تركت لهم التصرف في أملاكهم ، وأموالهم - إذا دخلوا الإسلام - أو أعطوا الجزية كما يشاءون ويختارون . وفي العراق دهاقين أثرياء كانوا يمدون ثوراتهم بالمال كما فعل الدهقان فيروز في إمداد حركة ابن الأشعث ضد الحجاج ، فلما التقى جيش الحجاج بجيش الموالي تحت إمرة ابن الأشعث عند روستاق أباد نادى الحجاج في المعسكر : « من أتى برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم » ففصل فيروز من الصف وصاح بالناس - من عرفني فقد اكتفي ، ومن لم يعرفني فأنا فيروز حصين . وقد عرفتم مالي ووفائي . « من أتى برأس الحجاج فله مائة ألف » . فلما أتى به إلى الحجاج قال له : « أنت الجماعل في رأسي مائة ألف ؟ » قال - قد فعلت ، قال : « والله لأمهدينك ثم لأحملنك ، أين المال ؟ قال عندي فهل للحياة من سبيل ؟ » قال : لا ! قال : فأخرجني إلى الناس حتى أجمع المال ، فخرج فيروز فأحل الناس من ودائعهم ، وأعتق رقيقه وتصدق بماله ، ثم رد إلى الحجاج فقال : شأنك فأمر الحجاج بقتله (٢).

ولم يكثرث الأمويون بما كان يقوم به شعراء الموالي في إيقاظ الروح وبعث الشعور في جماعتهم وتذكيرهم بأبجاد آبائهم كما كان يفعل شاعرهم اسماعيل بن يسار (٣) فقد كان جريئاً إلى حد أنه أنشد شعراً أمام هشام بن عبد الملك كله نخر وتذكير برجال الفرس قال :

إني وجدك ما عودي بذى خور عند الحفاظ ولا حوضي بمهدوم

(١) ولطووزن الدولة العربية وسقوطها ص ١٩٢

(٢) الكامل ٦٥٦ ، كريم تاريخ الثقافة ج ٢ ص ١٦١ .

(٣) أغاني ج ٤ ص ١٢٥ ، كريم تاريخ الثقافة ص ٣٠

أصلي كريم ومجدي لا يقاس به      ولي لسان كحد السيف مسموم  
جحا جح سادة بلج مرآبة      جرد عتاق مساميح مطاعيم  
من مثل كسرى وسابور الجنود معا      والمهر مزان لفخسر أو لتعظيم  
هناك إن تسألني تذيي بأن لنا      جرثومة قهرت عز الجرائم

فغضب هشام ثم شتمه وقال : « أعلیٰ تفخر وإيای تنشد قصيدة  
تمدح بها نفسك ، وأعلاج قومك ؟ » ، ولكنه لم يماقبه إلا عقابا يسيرا  
ذلك أنه أمر بغطسه في البركة ثم أخرج ونفي إلى الحجاز .

وكان كثير من هؤلاء الموالى يظهرون الحب ويتقربون من الأمويين  
ولكنهم يضمرون في مكثرتهم الغدر ، فقد حكى عن اسماعيل بن يسار  
أنه حجب عن الدخول على الغمر بن يزيد فجعل يبكي فلما سأله الغمر  
— مالك يا أبا فائدة تبكي ؟ قال — وكيف لا أبكي وأنا على مروانيتي .  
ومروانية أبي أحجب عنك . وما زال يبكي حتى وصله الغمر بحميله .  
وخرج من عنده فلهظه رجل فقال له : أخبرني « ويالك يا إسماعيل » أي  
مروانية لك ولأبيك ؟ قال بغضنا إياهم فامرأته طالق إن لم يكن يلعن  
مروان وآله كل يوم مكان التسبيح وإن لم يكن أبوه حضره الموت فقل  
له : قل لا إله إلا الله . فقال : لعن الله مروان تقربا بذلك إلى الله وإبداله  
من التوحيد وإقامته مقامه (١) .

وزاد في ذلك أن عمر بن عبد العزيز سار بهم سيرة العدل وسأواهم  
بالعرب وأطلق يدهم فتمكنوا أن ينفذوا خططهم التي اختطوها حسبما  
يريدون . وكانوا يستثمرون كل خلاف يقع بين الأحزاب العربية وبين  
رؤسائهم . وقد فطن لذلك عبد الملك . فكان يقول : إذا كان الفتق من  
سجستان فليس في ذلك بأس ، إنما كنا نتخوف إذا كان من خراسان ،

وقد كان نصر بن يسار ( والى يزيد بن الوليد في خراسان ) أشد رجلاً  
بني أمية حذراً ، كان يقول للسكرماني : يا أبا علي ، لقد لججت وأخاف  
أن يتفاقم الأمر فهلك جميعاً وتشمت بنا هذه الأعاجم (١) . وكتب يحذر  
عرب خراسان من العجم ومما جاء في قوله :

قوما يديتون ديناً ما سمعت به عن الرسول ولا جاءت به الكتب  
فمن يكن سائلي عن أصل دينهم فإن دينهم أن تقتل العرب (٢)  
وكان الموالي يخذون كل ثورة من شأنها إضعاف المماليك . فلم يترددوا  
في اتباع المختار ضد ابن الزبير ، والانضمام إلى عبد الرحمن بن الأشعث  
ضد الحجاج ومعاضدة العباسيين ضد الأمويين ، وقد تجاوزوا هذا إلى  
أكثر منه واستمروا على هذه الخطاة حتى بعد انتصار العباسيين فإنهم لم  
يترددوا في بذور بدور الشقاق بين أعضاء الأسرة نفسها فهم الذين ساعدوا  
الرشيد على أخيه الهادي والمأمون على أخيه الأمين .

وكانوا كثيراً ما يتخذون أهل البيت ستاراً لدعوتهم ويشورون  
لأجلهم قال نعيم بن حازم للفضل بن سهل ، وكان جالساً بين يدي المأمون  
حين أخذ الفضل يحسن نقل الخلافة من العباسيين إلى العلوين :  
« إنك إنما تريد أن تزيل الملك عن ولد العباس إلى ولد علي ثم تحتمل  
عليهم ، ثم تصير الملك كسروياً (٣) .